مجلة المجمع العلمي

عالمية اللغة العربية

الدكتور احمد مطلوب
رئيس المجمع العلمي

الملخص :

العربية لغة عالمية لا ريب في ذلك على الرغم من لغات انتشرت في القرن العشرين بوسائل مختلفة ، وكانت لغة القرآن واسعة الانتشار في العالم القديم بفضل الاسلام ، وقد أثرت في كثير من اللغات ولاسيما في ألفاظ الحضارة التي كانت من أهم معالم ذلك التأثير .

وتقف اللغة العربية اليوم الى جانب لغات عالمية أخرى كالانكليزية والفرنسية والإسبانية ، وهي إحدى اللغات المعتمدة في منظمة هيئة الامم ، ومن اللغات التي اهتم بها الأجانب اكثر من اهتمام بنيها ، وذلك لاغراض شتى منها العلمية والسياسية والاقتصادية ، وستكون أكثر انتشارا حينما يأخذ العرب دورهم في بناء الحضارة الانسانية .

هذا وغيره ما وقف عنده البحث الذي كان رصدا لواقع اللغة العربية قديما وحديثا ، وما ينبغي أن يقوم به العرب في داخل وطنهم وخارجه ، لتظل لغة العلم والتقدم والازدهار .

(١)

كثر الحديث عن اللغة العالمية كثرة جعلت الناس في دوامة ، وأخافت من يؤمن بهويته ولغته وثقافته ، بعد أن ذرّت العولمة بقرنيها ، وأخذت تجتاح البلدان باسم التقدم العلمي وحرية الانسان .

إن أكثر اللغات استعمالا في العصر الحديث : الصينية ، والاسبانية ، والانكليزية ، والفرنسية ، ولا تعد الصينية لغة عالمية وان تكلم بها أكثر من مليار ؛ لأنها لا تستعمل خارج بلاد الصين ، وأما اللغات الثلاث الاخرى فهي مما أشاعه الاستعمار في الأمريكتين ، واستراليا ، ونيوزلندة ، وفي بعض أنحاء افريقية ، وآسية ، ولولا الاستعمار ما عرفتها هذه البلدان التي كانت مكتفية بلغتها القومية والوطنية ، ولا انتشرت هذا الانتشار الواسع ، وفرضت على البلدان المحتلة ، وأصبحت لغات رسمية ، أو لغات التعليم والمعاملات التجارية ، أو وجها من وجوه الحضارة .

أما اللغة العربية فهل تعد عالمية ؟ وكيف تكون عالمية في العصر الحديث ؟

(٢)

كانت العربية قوية حينما كان العرب أقوياء ، وكانت عالمية يوم كان العرب أحرارا لهم دولة تمتد من الأندلس الى الصين ، وكانت في هذه الأصقاع المترامية لغة تخاطب ودين وتعليم وتأليف في مختلف العلوم التي ذكر منها طاش كبري زادة في كتابه (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) ثلثمائة واثنين وعشرين علما ، اقتضتها الحياة والتقدم العلمي الذي ازدهر في ظل الدولة العربية الاسلامية ، وكان من تلك العلوم ــ ولا غرابة ــ علما الرقص والغنج ، وفي هذا دلالة على تفتح العرب ، واهتمامهم بكل ما يخص الانسان من علم وترفيه وحياة رغيدة .

استطاعت العربية أن تعبر عن تلك العلوم والفنون ، ولو كانت تلك المستجدات أكثر لاستوعبتها لما فيها من طاقات تتمثل

في وسائل تنميتها كالقياس ، والاشتقاق ، والتوليد ، والنحت ، والتعريب .

لقد عرف العرب أهمية اللغة ، ولمحوا الصلة بينها وبين الحضارة فاهتموا بها لتكون وعاء للحضارة التي عاشوا في ظلها ولتكون خير وسيلة تعبر عن حضارتهم وملامح حياتهم . وقد بدأت تزدهر بعد نزول القرآن الكريم الذي أحدث ثورة فكرية ، وهزة لغوية ، إذ نقل الاسلام ألفاظا من مواضع الى مواضع ، واستحدث ألفاظا لم تكن معروفة من قبل ببنيتها أو بمعناها الجديد ، فنمت في ظله وازدهرت لتستوعب الجديد ، ولم تعد لغة الشعر والخطابة فحسب ، وإنما أصبحت لغة العلوم التي بدأت العناية بها في عهد بني أمية ، وكان خالد بن يزيد بن معاوية قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، وأمر بنقل الكتب من اللسان اليوناني الى اللسان العربي ، وكانت له كتب ورسائل ، وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم ، إنه الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة ، وأول من تُرجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء ، ورأى ابن النديم من كتبه : كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته الى ابنه في الصنعة .

استوعبت العربية هذه العلوم منذ عهد مبكر ، وكانت وعاء للنهضة العلمية التي بدأت تطرق الحياة العربية ، وللحضارة التي بدأت تورق وتزدهر وتقدم ثمرا جنيا في العصر العباسي الذي بدأت فيه حركة التدوين والتأليف والترجمة تنمو وتتسع ، وكان لظهور كتب الفقه وعلوم القرآن والحديث واللغة والفلسفة وعلم الكلام أثر كبير في نمو العربية واتساعها ، إذ أخذ المؤلفون والمترجمون يضعون المصطلحات مستفيدين من قدرتها في

الوضع ، وكان للمتكلمين ــ علماء الكلام ــ فضل في نموها واستيعابها العلوم الجديدة ، قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاظ في كتاب (الحيوان) : ((وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له من لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف ، وقدوة لكل تابع)) .

وأشار في كتاب (البيان والتبيين) الى وضع الخليل بن احمد الفراهيدي لاوزان الشعر ألقابا لم تكن العرب تتعارف الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وأشار الى وضع النحاة وأصحاب الحساب أسماء جعلوها علامات للتفاهم ، وقال : ((وإنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني)) .

وأخذت العلوم تتسع ، وبدأت الكتب تؤلف فيها أو تترجم اليها ، وشهد العصر العباسي نهضة فكرية وعلمية واسعة المدى ، وكان لتشجيع أولي الأمر على التأليف والترجمة أثر في ذلك الازدهار ، وكان لمرونة العربية دور كبير في استيعاب ألوان الثقافة ، والتعبير عن الحضارة التي ازدهرت ، وكانت حركة التأليف صدى لها إذ وضعت الكتب في العلوم المختلفة ، وترجمت كتب الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات والفلك والكيمياء والصيدلة والموسيقى ، وغيرها من العلوم التي ذكرها الفارابي في (إحصاء العلوم) ، وابن النديم في (الفهرست) وإخوان الصفا في رسائلهم ، والخوارزمي في (مفاتيح العلوم) ، وطاش كبري زاده في (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) ، وكارل بروكلمان في (تأريخ الأدب

العربي) والدكتور فؤاد سزكين في (تأريخ التراث العربي) ، ومؤلفوا كتب التراث العلمي عند العرب .

(٣)

كانت العربية يوم ازدهار الحضارة العربية الاسلامية لغة عالمية ، ولم تتوقف عن النمو وإنما سايرت المستجدات ، وحملت الحضارة الى العالم المعمور يومذاك ، وكان غير العرب يتعلمونها ؛ لأنها لغة الدولة والعلم والتأليف . وتتجلى عالميتها في ذلك العهد في :

أولا : التأليف بالعربية ، إذ منذ أن شع نور الاسلام على العالم بدأ التأليف بها ، وكان لها أثر كبير في قلوب المسلمين لأنها لغة القرآن الكريم ، واعتزوا بها كل الاعتزاز وهذا أبو الريحان البيروني قد قال في مقدمة كتاب (الصيدنة) : ((والهجر بالعربية أحبّ اليَّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به ، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية ، والأسمار الليلية)) .

وقال جار الله الزمخشري في مقدمة كتاب (المفصل) : ((الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي أن أنفرد من صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي الى لفيف الشعوبية وانحاز)) .

ومعنى هذا أن الاعتزاز بالعربية لم يكن مقصورا على العرب وحدهم ، وإنما كان المسلمون من غير العرب يعتزون بها ، ويفضلونها على لغاتهم ، ويؤلفون بها . وينظمون الشعر بها ، وهو ما يتضح في

التراث العربي الاسلامي الذي ظل شاهدا على العناية بلغة القرآن الكريم حتى اليوم .

وامتدت العناية بالعربية الى أوربة ، وكان للكتب العربية أثر في النهضة الأوربية ، إذ نشطت ترجمتها الى اللغات الأوربية منذ القرن الحادي عشر للميلاد ، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات العرب والمسلمين ، وإنما نُقلت كتب علماء اليونان التي ترجمها العرب مثل كتب جالينوس ، وبقراط ، وافلاطون ، وأرسطوا ، واقليدس ، وأرخميدس ، وبطليموس .

وكان اهتمام أوربة بترجمة كتب العرب العلمية أكثر من اهتمامها بغيرها ، ولذلك عُنيت بترجمة كتب الفلك والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلم حيل (التقنيات) وأصبحت بين أيدي الدارسين وطلبة الجامعات كتب : البتاني ، والخوارزمي ، والرازي ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، وابن النفيس ، والزهراوي ، فضلا عن ترجمة بعض العلوم الانسانية مثل كتب الفقه ، والتأريخ ، والمسالك والممالك ، التي خدمت أوربة في تحقيق أهدافها التوسعية في القرنين الماضيين .

ثانيا : الاستعانة بالمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية ، إذ تأثر كثير من اللغات الغربية والشرقية بالعربية ، ودخلت فيها ألفاظ عربية ، ومن تلك اللغات الاسبانية ، والانكليزية ، والفرنسية ، والالمانية ، والمالطية ، والفارسية ، والتركية ، والأوردية ، واعترف المنصفون من الباحثين بهذا التأثير ، قالت الدكتورة زيغرد هونكه في كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) : ((إن في لغتنا ـ تقصد الألمانية ـ كلمات عربية عديدة ، وإننا لندين ـ والتأريخ شاهد على ذلك ـ في كثير من أسباب الحياة الحاضرة

للعرب ، وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة الى النفوس ، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب الذي كان يوما من الأيام قاتما كالحا باهتا ، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة ، وطيبته بالعبير العابق ، وأحيانا باللون الساحر ، وزادته صحة وجمالا وأناقة وروعة)) .

ثالثا : اتخاذ مناهج علوم اللغة العربية في تأليف الكتب اللغوية ، ومن ذلك تأثر النحو العبري بالنحو العربي ، إذ أن النموذج العربي هو الذي احتذاه العبرانيون ، وأنه كان الحافز لنحاة العبرانية على تأليف كتبهم ، وأن كتب اليهود النحوية الأولى كتبت بالعربية واستخدمت مصطلحات النحو العربي ، واتبعت النسق الذي كان النحاة العرب يتبعونه في كتبهم .

وتأثرت علوم اللغة الفارسية بعلوم اللغة العربية ، ونحا المؤلفون بالفارسية منحى العرب ، ومن أوضح ذلك كتب البلاغة مثل (ترجمان البلاغة) لمحمد بن عمران الرادوياني ، و (حدائق السحر في دقائق الشعر) لرشيد الدين الوطواط .

رابعا : التأثر بايقاع الشعر العربي ، وقد أثبت الباحثون أن الشعر الأوربي والسرياني والعبري تأثر بأوزان الشعر العربي وقوافيه ، يقول لوبون في كتاب (حضارة العرب) : ((إن الاوربيين اقتبسوا فن القافية من العرب ، ودلت مباحث (فيادرو) وغيره من الكتاب الكثيرين على هذا الأمر الذي كان الأسقف (هويه) بيّنه منذ زمن طويل)) ، ويقول : ((ويعزى الشعر الاسباني والشعر البروفنسي الى ما كان لشعراء الاندلس من تأثير)) . وذكرت الدكتورة زيغرد هونكه أن الشعراء الغنائيين أخذوا عن الأوزان والقوافي العربية ، وعن كل طابع مميز للشعر الأندلسي .

ودرس الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف أثر أوزان الشعر العربي وقوافيه في الشعر السرياني والعبري ، وأوضح ذلك التأثير في كتابيه (القوافي والأصوات اللغوية) و (بدايات الشعر العربي) .

خامسا : اتخاذ بعض اللغات كالتركية القديمة ، والأوردية ، والفارسية ، وبعض اللغات الافريقية الحرف العربي وسيلة للكتابة ، واتخذ الحرف العربي ــ فضلا عن ذلك ــ زينة جمالية في المباني واللوحات الفنية .

إن هذا التأثير وغيره ما كان ليتم لولا قدرة اللغة العربية على استبعاب المستجدات ، وما فيها من جمال الايقاع ، وهذا من عالميتها التي اتسمت بسمات حددها الدكتور ابراهيم أنيس في كتاب (اللغة بين القومية والعالمية) بثلاث سمات :

الأولى : أنها لا تخاطب الكبير بخطاب ، والصغير بخطاب آخر ، ولا تخلط بين ضمير المفرد وضمير الجمع ، فيقول ــ سبحانه وتعالى ــ : ((أنا ربكم الأعلى)) ، ويقول الرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ((إنما أنا بشر)) ، ويقول الناس : ((ما أنت إلا بشر مثلنا)) الى غير ذلك من أساليب أصيلة سوّت بين الناس في الخطاب والغيبة والتكلم .

الثانية : سعة انتشارها ، واصطناع شعوب متعددة لها .

الثالثة : ترحيبها بالألفاظ التي اقترضتها من اللغات الأخرى واستغلتها في المصطلحات ولغة الكلام .

وكان يوهان فك قد قال في كتاب (العربية) : ((إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسا لهذه الحقيقة الثابتة ، وهي أنها

قامت في جميع البلدان العربية وما عداها من الأقاليم الداخلة في المحيط الاسلامي رمزا لغويا لوحدة العالم الاسلامي في الثقافة والمدنية)) .

(٤)

هذا ما كان من عالمية اللغة العربية في القديم ، فما حالها في العصر الحديث ؟

عرف العرب أهمية لغتهم في بداية النهضة الحديثة ، وأولوها عناية كبيرة ، ونشروا كثيرا من كتب التراث ليكون ردءً لهم يحمي ثقافتهم وحضارتهم وقيمهم التي بدأت تتعرض للغزو الثقافي والاستلاب . وكان من اعتزازهم بلغة القرآن الكريم تدريس العلوم بها ، وكانت مدرسة القصر العيني بالقاهرة تدرس الطب بالعربية ، ويضع أساتذتها الكتب بها ، ودرست الجامعة الامريكية في بيروت ـ في أول نشأتها ـ الطب بالعربية ، ووضع أساتذتها الكتب النافعة ، وكانت تهتم بلغة الكتاب العزيز ، وقد أنشأت (جمعية تنشيط اللغة العربية) للعناية بلغة الضاد ، واستقطاب الأدباء من كل حدب وصوب ، كما كان يحدث في مطلع القرن العشرين ، وفي ديوان خليل مطران ما يلقي الضوء على هذه الجمعية النشطة حين ألقى سنة ١٩٢٤ قصائد في الجامعة الامريكية بدعوة من هذه الجمعية التي كانت تنشط للعناية بالعربية . هذا فضلا عما كانت تقوم به من رعاية لأصحاب المواهب الفنية ، وقد تخرج فيها حينذاك شعراء كبار مثل وجيه البارودي ، وحافظ جميل ، وابراهيم طوقان .

ولكن مدرسة القصر العيني والجامعة الأمريكية تنكرتا للعربية بعد ذلك وفرضتا لغة المستعمر ، وسارت على نهجهما الجديد الجامعات العربية ،

ما عدا القليل منها ، حيث تتعرض اللغة العربية لهجمات ضارية تحاول حرف هذه الجامعات عن نهجها الذي اختطته من ايمانها بالأمة العربية ولغتها التي أثبتت قدرتها على تدريس العلوم بها ، وتفوق الدارسين بها على أقرانهم في البلدان الأجنبية عند إكمالهم الدراسات العليا أو التخصصية .

إن متابعة اللغة العربية منذ مطلع القرن العشرين تظهر قدرتها على استيعاب الجديد ، فبعد ان كانت لغة الصحافة ــ مثلا ــ محصورة بالألفاظ والأساليب القديمة اتسع نطاقها وأصبحت قادرة على التعبير عن المستجدات ، ومثلها الاذاعتان المسموعة والمرئية ، وأصبح لوسائل الاعلام دور في إشاعة العربية الفصيحة ، ونقل ألوان الحضارة ، وصنوف العلوم بألفاظ صافية ، وأسلوب عربي مبين . وما كان لها أن تقوم بذلك لولا مرونة العربية ، ولولا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأخلصوا لأمتهم وكتاب العربية الأكبر ، القرآن الكريم .

وتتضح الصلة بين اللغة والحياة الجديدة في مجال التأليف والترجمة ــ أيضا ــ إذ صدرت ملايين الكتب في الآداب والعلوم والفنون بلغة عربية سليمة ، ووضعت في كل علم وفن مئات الآلاف من المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية ، وأصبح التأليف والترجمة ميسورين بعد أن كانا محصورين في مجال ضيق في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

لقد تآزرت عدة جهات لجعل العربية قادرة على استيعاب الجديد ، ومن تلك الجهات :

أولا : أساتذة اللغة العربية حيث عنوا بها وتابعوا سيرها ، ووضعوا الكتب في وسائل نموها ، وكان هذا إخلاصا للغتهم وادراكا لارتباطها

بالمجتمع الجديد الذي يحيون فيه ، كما أدرك العرب القدماء أن اللغة ظـاهرة اجتماعية ، فعنوا بها ، وسعوا الى تنميتها لتساير تقـدم المجتمـع وازدهـار الحضارة في ظله .

ثانيا : المجامع العلمية واللغوية التي كان لها دور كبيـر فـي تنميـة العربية بما وضعت من مصطلحات علمية وألفاظ حضارية ، وما ألفت مـن معاجم ، ونشرت من بحوث ودراسات . وهذا عمل كبير له تأثير في واقـع اللغة العربية المعاصرة ، وقد يكون له تأثير أعظم لو كان لجميـع المجـامع سلطة تنفيذ قراراتها وتوصياتها ، وما تتخذ من أعمال .

ثالثا : وسائل الإعلام ، ولها دور في نهضة العربية على الرغم مـن دعوة بعضها الى تمزيق شمل العرب ، وحرف لغـتهم التـي عاشـت فـي ضميرهم آلاف السنين .

رابعا : الاستشراق ، إذ عكف المستشرقون على دراسة اللغة العربيـة وتحقيق التراث العربي ، وكتابة البحوث التي نفعت اللغة ، وتأسيس المعاهد لتدريس العربية ، بغض النظر عما وراء ذلك من أهداف .

إن واقع العربية في هذه الأيام يؤهلها لتكون عالمية كما كانت في عهد ازدهار الحضارة الاسلامية على الرغم مما يحاك ضدها من دعاة العاميـة ، ودعاة الأخذ بلغة أجنبية .

(٥)

كانت اللغة العربية عالمية في القديم ، وهي الآن ثالث لغة في العـالم وإحدى اللغات المعتمدة في منظمة هيئة الأمم ، ولكن أيكفي ذلك ؟ وهل هناك من أمل في أن تصبح عالمية ؟

قبل كل شيء لابدّ من تحديد معنى العالمية ؛ لأن هناك اختلافا في وجهات النظر ، فمنهم من يرى أنها في كثرة المتحدثين بها ، ومنهم من يرى أنها القادرة على استيعاب المستجدات ، ومنهم من يرى أنها اللغة الأجنبية التي يعرفها ، ومنهم من يرى أن لغة المستعمر هي العالمية ، ومنهم من يرى لغته هي العالمية .

ثم هل لابدّ من أن تسود العالم لغة واحدة كالانكليزية التي يسعى بعضهم الى أن تسود وتصبح اللغة العالمية المنشودة ؟ يبدو أن هذا حلم الانكليز وأتباعهم ، وكان م . م لويس قد سأل في كتابه (اللغة والمجتمع) : ((ما الشكل الذي ستتخذه اللغة العالمية ؟)) وأجاب : ((يبدو أننا نستطيع أن نسجل احتمال أن تكون الانجليزية هي اللغة العالمية الاولى ، ويحتمل أنه لا يوجد لغة يفهمها عدد من الناس اكبر من عدد من يفهمون الانجليزية)) . ودليله أنها ((لغة اثنتين من الدول الأربع الكبرى ، ويقف وراءها النفوذ الشاسع للفلم الأمريكي والراديو البريطاني ، وهي في صورتها المعدلة لتصير ما يسمى انجليزية أساسية Basice English ، أصبحت لغة الكومونولث البريطاني للاتصال الخارجي والداخلي على السواء)) .

وهذه الفكرة نابعة من العقلية الاستعمارية يوم كانت الشمس لا تغيب عن التاج البريطاني ، وقد يقول هذا القول الفرنسيون أو الاسبان أو الصينيون أو الروس أو أية دولة لها نفوذ وامتداد في الساحة الدولية .

إن قدرة أية لغة على التعبير عن المستجدات هي اللغة التي يكون لها وجود على الدلق العالمي بغض النظر عن وجود لغات أخرى لها القدرة نفسها ، واللغة العربية التي يتحدث بها اكثر من ثلثمائة مليون عربي ، وينتفع

بها مليار مسلم ، وغير عربي أو مسلم من المهتمين بالاستشراق واللغات الأجنبية لأغراض سياسية وعلمية ، فضلا عن قدرتها على النمو بالوسائل المعروفة لما فيها من حيوية واتساع ، كل هذا يضع لغة القرآن الكريم في مصاف اللغات العالمية التي تنتشر لولا الاستعمار وسيطرة المحتلين القدامى والجدد الذين اندفع بعضهم بالجيوش ، وبالعولمة والشركات المتعددة الجنسية ، والنزعة الانسانية ، والتحرير من الأغلال .

ولكن أيكفي واقع العربية لأن تظل كما هي ؟

إن اللغة لا تنمو وتزدهر إن لم يهتم بها أهلوها ، وقد اهتم العرب والمسلمون الاوائل بالعربية لانها لغة قوميتهم وعقيدتهم وثقافتهم ، وكانوا حريصين عليها كل الحرص ، معتزين بها كل الاعتزاز ، ولم يظهر خارجي يدعو الى التقليل من شأنها أو الغائها واستعمال لغة أخرى إلا بعد أن تفكك العالم الاسلامي وظهرت دول أحيت لغاتها واتخذتها لغة قومية ، كما فعلت جمهوريات الاتحاد السوفيتي بعد انهيار الاتحاد ، حيث عادت كل جمهورية الى لغتها بعد أن كانت اللغة الروسية اللغة الرسمية في تلك البلاد .

إن ما يواجه العربية اليوم ليس الأجانب وحدهم وإنما الخوارج المنتسبون الى الوطن العربي ، وكان القرن العشرون قد شهد دعوات الى تغيير قواعدها والحرف الذي يكتب بها ، أو الأخذ بالعامية لغة تعليم وتأليف . وخلقت تلك الدعوات بلبلة في الأوساط الثقافية ، وخدع بها بعض الباحثين فدعوا الى ذلك متخذين الاسلوب العلمي ذريعة وسبيلا . ولا يدري العربي الغيور وهو يقرأ لهؤلاء أأريد بلغته خيرا أم أريد بها شرا ؟

إن الذي يعوق جعل العربية عالمية بعض بنيها أو المحسوبون عليها ممن لا يخدمونها كما يخدم الأجانب لغاتهم ، ولا يصونونها كما يفعل غيرهم ، فضلا عن تنكر كثير من أولي الأمر لها خلافا لما يفعله أولو الأمر في الدول الأجنبية ، وما كان يفعله العرب القدماء ، من حرص على العربية واعتزاز بها وسعي الى تنميتها . والتأريخ يتحدث عن جهودهم واهتمامهم بلغة القرآن الكريم ونشرها ، وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من اولئك الرجال حيث كان شديد الحرص على العربية وكان يصغي الى ما يبدعه الشعراء ، ويحث على اتقان العربية . وقد ذكر الدكتور ابراهيم أنيس في كتاب (اللغة بين القومية والعالمية) أن عبد الملك كان يقول عن ابنه الذي كان لحانا : ((أضر بالوليد حبنا له فلم نرسله للبادية)) وكان يربط ولاية الحكم بالعربية ويقول لابنه الوليد : ((إنه لا يلي أمر العرب إلا من يحسن كلامهم)) وأين هذا من ولاة الأمور في هذه الأيام ؟

والعرب إذا أرادوا أن تتبوأ لغتهم مكانة بين لغات العالم ، عليهم أن يعنوا بها ، وإن تكون تلك العناية هاجس ولاة الأمور قبل كل شيء ، ثم تأتي وجوه العناية ومنها :

أولا : الايمان بأن اللغة كيان الأمة والوطن ، ومن ثم يأتي التخطيط العلمي الذي ينفذ على مراحل ، ويضاف اليه ما يستجد . ولا يتم ذلك إلا باصدار قانون يحدد الأسس التي يقوم عليها الحفاظ على سلامة اللغة ، وتأسيس هيئة عليا تشرف على تنفيذ القانون ، وتضع الوسائل التي تنهض باللغة ، وتقترح القوانين الخاصة بها ، وهو ما معمول به في العراق إذ فيه ((الهيئة العليا للعناية باللغة العربية)) ، وما في الجزائر إذ فيها

((المجلس الأعلى للغة العربية)) ومهامه تشبه مهام هيئة العراق . ومثل هذا في فرنسة ((اللجنة العليا للغة الفرنسية)) فضلا عن الجمعيات التي تعنى بسلامة اللغة ، وهذا من إيمانها بأن اللغة تحتاج الى من يتابع مسيرتها ، وكان خليل مطران قد قال في سنة ١٩٢٣ ، والعرب في أوج حرصهم على لغتهم :

يودي الفصيح من اللغات إذا غفا عنه الرقيب

ثانيا : المجامع العلمية واللغوية إذ لها دور كبير في الاهتمام بالعربية ، وجعلها قادرة على استيعاب المستجدات . وقد عملت منذ نشأتها على وضع الدراسات والمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية ، ولكن لم ينتفع كثيرا بما أنجزت ؛ لأنها لا تملك سلطة تنفيذيه كالمجمع العلمي ببغداد ، إذ نصت المادة التاسعة من قانون ((الحفاظ على سلامة اللغة العربية)) ذي الرقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧م على :

((يكون المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد في وضع المصطلحات العلمية والفنية ، وعلى الأجهزة المعنية الرجوع اليه بشأنها)) .

ولا يقوم مجمع بغداد بهذا فحسب ، وإنما يقوم بتنفيذ ما جاء في قانون ((الحفاظ على سلامة اللغة العربية)) ومنها منح الموافقة على تسمية الشركات والمحال التجارية بأسماء عربية قبل أن تمنحها الجهات المختصة الاجازات الرسمية ، فضلا عما يرد الى المجمع من استشارات لغوية ، وغير ذلك مما يهم شؤون لغة الضاد .

هذه هي الخطوة العملية في الاهتمام باللغة العربية وجعلها عالمية ، لأنه لا ينجح أي عمل من غير تخطيط وتشريع لغوي ، واللغة ــ وإن كانت

ظاهرة اجتماعية ــ لا تترك للتيارات المتصارعة ، والآراء المتضاربة ، والنظريات البعيدة عنها ، وإنما على بنيها أن يتابعوا مسيرتها ، ويرصدوا الانحرافات التي يفضي اهمالها الى مسخ اللغة . وكان العرب الاوائل حريصين على لغتهم ، ولذلك ألفوا الكتب في ضبط أصولها ، ووضعوا المعاجم لتحديد مبانيها ومعانيها ، وأعادوا الى اللغة ما انحرف عنها بكتب التصحيح اللغوي ، ولذلك ظلت نقية الى حد كبير على الرغم مما مرّ به العرب من تقهقر وسبات قبل بدء نهضتهم الحديثة في مطلع القرن العشرين .

ثالثا : الاهتمام بتدريس اللغة العربية في جميع المراحل الدراسية ، وجعلها مادة أساسية في مختلف الاختصاصات الجامعية ، ولاسيما في كليات التربية ، لأن خريجيها يتولون التدريس في التعليم العام ، وفي كليات الحقوق (القانون) ؛ لأن خريجيها يتولون القضاء والمحاماة ، واتقانهم العربية وأساليبها ودلالة ألفاظها الدقيقة ييسر فهم القوانين وتنفيذها بدقة وعدل وانصاف .

ولا ينفذ هذا إلا بقرار ملزم من الدولة ، وفي اقراره تعزيز لمكانتها واحترام لهويتها ، وتأكيد لاستقلالها . وليس صحيحا ما يقال من أن الدول قد تتحد ولغاتها مختلفة كما في الاتحاد الأوربي ، لأن هذا الاتحاد لم يقم على أساس قومي أو وطني وإنما على أساس مصالح سياسية واقتصادية . بحيث ظلت كل دولة محتفظة بهويتها ولغتها ، وقد ينهار الاتحاد بأسرع ما يتوقع حينما تتعارض المصالح بين دوله ، وهو ما حصل للاتحاد السوفيتي حينما انهار وعادت كل جمهورية من جمهورياته الى هويتها ولغتها . وهذا يؤكد أن كل أمة لا تتخلى عن لغتها إذا ملكت إرادتها ، وحققت سيادتها واستقلالها .

رابعا : تعريب التعليم في الجامعات ؛ لأن التدريس باللغة الأم يخدم العملية التربوية ويحقق نتائج باهرة ، بخلاف التدريس بلغة أجنبية . وقد وقف التربويون عند هذه المسألة منذ عقود كثيرة ، وأكدوا أن التعليم بغير لغة الأم يعد ناقصا ، ومن ذلك التقرير الذي رفعه الدكتور فاضل الجمالي ــ مدير التدريس والتربية العام ــ الى وزير المعارف العراقية في الرابع من شهر آذار سنة ١٩٣٨م ، إذ جاء فيه :

((إن عدم اتقان الطلبة اللغة الانكليزية يجعل دراستهم عقيمة ، ولاسيما والكتب كلها انكليزية ، والمحاضرون معظمهم انكليز . وقد حدث أن رأيت أحد الطلاب المتخرجين لم يستطع قراءة وفهم الكتاب الذي درسه في كلية الطب ، وفي هذا خطر على الأرواح لا يمكن أن يقدر)) ، وهدفه من هذا الاهتمام باللغة الانكليزية .

كان هذا والزمان موات ، والأساتذة انكليز ، والطلبة جادون ، فماذا يقول الدكتور الجمالي اليوم ؟

إن التعليم بالعربية في جميع المراحل الدراسية ييسر الفهم ، ويسرع في استيعاب المادة العلمية ، ويعزز مكانة لغة الضاد ، ويوسع قدراتها للتعبير عن المستجدات ، ويدفع العاملين في حقولها الى المثابرة والعمل الجاد في سبيل الحفاظ عليها وتنميتها ، ورفدها بكل جديد ، فضلا عن ردم الهوة بين التعليم العام والتعليم الجامعي التي توقع الطلبة في مشكلة حين الانتقال من اللغة الأم الى اللغة الأجنبية عند التحاقهم بالجامعات التي لم تعرب التعليم .

ولا يخدم التعريب العربي وحده ، وإنما يعزز العربية في الخارج ، ويدفع الأجانب الى تعلمها للرجوع الى ما ينشر ويذاع بها ، كما يتعلم العربي اللغة الأجنبية للرجوع الى ما يريد معرفته . وقد يجعل اهتمام العرب بلغتهم دافعا لاهتمام المراكز الاستشراقية ومعاهد تعليم العربية أكثر من عنايتها في الوقت الحاضر لتتابع ما يحدث في الوطن العربي من تقدم في اللغة واستيعابها المستجدات .

خامسا : جعل النجاح في اللغة العربية شرطا من شروط التعيين في مؤسسات الدولة والقبول في الدراسات العليا أسوة بامتحان الكفاءة باللغة الأجنبية . والالتزام بذلك في تعيين التدريسيين في الجامعات ، وهو ما يجري الآن في العراق إذ لا يعين التدريسي إلا بعد الامتحان باللغة العربية مهما كان تخصصه العلمي ، ويسري هذا على الموظفين الذين تؤهلهم شهاداتهم العليا لتغيير عناوين وظائفهم والعمل في الجامعات ليأخذوا مكانتهم العلمية ، وينتفعوا بما في ذلك من امتيازات .

سادسا : الاهتمام بلغة الإعلام المقروء والمسموع والمرئي ، لأنه ألصق بحياة الناس من غيره ، ولاسيما المرئي الذي امتلأت به الأجواء ، وأصبح ضروريا كالماء والهواء والغذاء .

(٦)

هذا ما ينبغي أن يكون داخل الوطن العربي لتأخذ لغة الضاد دورها في النطاق الاقليمي العربي ، ولتبقى حقيقة لا ريب فيها ، يؤمن بها العربي ، ويحافظ عليها ويسعى الى تنميتها وازدهارها . أما في خارج الوطن العربي فمما يعززها :

أولا : إنشاء معاهد لتدريس اللغة العربية ، وفتح المدارس لابناء العرب المقيمين في ديار الغربة ، ولمن يريد التزود من الثقافة العربية ، وهذا ما تقوم به الدول الأجنبية ، إذ لمعظمها معاهد ومراكز ثقافية في الخارج ، مهمتها نشر لغتها وثقافتها الى جانب تحقيق أهداف تتصل بسياستها الخارجية . وقد كان للمعاهد الثقافية أثر في جذب الملتحقين بها الى الدول التي أنشأتها ، والسفر اليها ، والتشبث بما لديها ، وإكمال التحصيل العلمي فيها ، وبذلك تكون لها مراكز جذب في مختلف البلدان .

ثانيا : نشر الاسلام خارج الوطن العربي لصلته باللغة العربية ، لأن القرآن الكريم بلسان عربي مبين . ولولا الاسلام ما عُرفت العربية في مشارق الأرض ومغاربها ، ولا اهتمت بها المدارس والجامعات في كل بلد ترتفع في مآذنه عبارة ((لا إله إلا الله محمد رسول الله)) . ولعل ما تفعله بعض دول افريقية ودول شرقي آسية خير دليل على الاهتمام بالعربية من خلال الاسلام وقراءة القرآن الكريم .

ثالثا : تعيين مستشارين ثقافيين في السفارات العربية من ذوي الاختصاص باللغة العربية ، أو المهتمين بها والحريصين عليها ليتابعوا نشاط المعاهد اللغوية والمراكز الثقافية التابعة لدولهم ، وأن تكون لهم صلاحيات تؤهلهم للقيام بواجبهم خير قيام .

رابعا : إلقاء المسؤولين العرب كلماتهم في هيئة الأمم والمحافل الدولية باللغة العربية ، أسوة بما يفعله المسؤولون في دول العالم ، واعتزازا بلغتهم ، وتأكيدا لهويتهم ، واحتراما لوطنهم .

خامسا : تقديم البحوث والقاؤها بالعربية في المؤتمرات ، إذ ليس من العزة الوطنية أن يقدم العربي بحثه بلغة أجنبية وهناك من وسائل الترجمة ما يعين الحضور على متابعة البحث ومناقشته .

سادسا : وضع المواقع بالعربية في شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) لما في ذلك من أهمية في جعل الأجنبي يتعلم لغة القرآن الكريم ليتابع ما في الموقع من معلومات تعينه فيما يحتاج اليه الى جانب المواقع باللغات الأجنبية .

سابعا : الاهتمام بالفضائيات التي تعد ـ اليوم ـ من أوسع وسائل الاتصال انتشارا ، وتستطيع الدول أن توجه فضائياتها الرسمية وغير الرسمية وجهة تخدم العربية حين تقدم ما تعرضه بلغة واضحة سليمة .

(٧)

هذه خطوات تعزز اللغة العربية وتقربها الى العالم ، ولن يتحقق ذلك إلا بانشاء هيئات أو مجالس عليا ليستطيع العرب الحفاظ على سلامة لغتهم ونموها وازدهارها ، وتكون لغة الضاد إحدى اللغات العالمية .

هذا على المستوى الوطني ، أما على المستوى العالمي فمن الضروري والمهم أن تقوم ((منظمة دولية للغة العربية)) تضع الخطط الكفيلة بالحفاظ على لغة القرآن الكريم ونشرها في العالم ، وأن يكون للمنظمة سلطان لتحقق أهدافها ، وأن تعمل بجد وإخلاص كما تعمل الفرنكفونية في الساحة الدولية . وهذه دعوة أطلقتها في شهر نيسان من عام ٢٠٠٢م في الكلمة التي ألقيتها نيابة عن المشاركين في افتتاح ((مؤتمر اللغة العربية أمام تحديات العولمة)) الذي عقده في بيروت ((معهد الدعوة الجامعي للدراسات

الاسلامية)) ، وما اقترحته في بحثي ((اللغة العربية وتحديات العولمة)) الذي قدمته في ندوة ((قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة)) التي عقدت في مجمع اللغة العربية الاردني في أيلول سنة ٢٠٠٢م ، بدعوة من اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية ، وما ذكرته في ورقتي ((التشريع اللغوي)) التي قدمتها في المؤتمر الرابع لمجمع اللغة العربية بدمشق في تشرين الثاني سنة ٢٠٠٥م .

وكان معهد الدعوة الجامعي للدراسات الاسلامية قد أقر في مؤتمره الذي عقده ببيروت في نيسان ٢٠٠٢م ، تأسيس ((مجلس عالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها)) ووضع مشروع النظام الأساسي الذي شاركت في وضعه . وقد نصت المادة الأولى على :

((يؤسس مجلس علمي باسم المجلس العالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها ، له شخصية اعتبارية)) .

ونصت الفقرة الخامسة من المادة الرابعة على :

((العمل على نشر اللغة العربية خارج الوطن العربي ، والاهتمام بلغة أبناء الجاليات العربية حفاظا على الهوية العربية والاسلامية)) .

واطلع على النظام العماد أميل لحود ــ رئيس الجمهورية اللبنانية ــ وقال في رسالته التي وجهها الى رئيس المعهد ــ الدكتور عبد الناصر جبري ــ في العشرين من تشرين الثاني سنة ٢٠٠٢م .

((لقد اطلعت بامعان على مشروع نظام المجلس التأسيسي لرعاية اللغة العربية وتنميتها ، وقد رغبتم من خلال اطلاعنا عليه أن تحصلوا على إشارات بهذا الخصوص .

إننا نهنئكم على جهودكم في إظهار لغتنا العربية لا لغة الشعر والمنطق فحسب ، بل لغة العلم والتطور والحضارة ، وما رغبتم في إنشاء مجلس عالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها إلا تلبية لهاجس التفوق الذي تبثه فينا جماليات قوالب هذه اللغة وعبقريتها)) .

ويعزز هذه الدعوة توصية الندوة التربوية التي عقدت في باريس سنة ٢٠٠٤م وشاركت فيها المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وجمعية الدعوة الاسلامية العلمية ، وجاء فيها :

((إنشاء هيئة عالمية للغة العربية تكون إطارا جامعا للدول والمجتمعات الناطقة باللغة العربية ، وجهازا متخصصا يخدم لغة الضاد ، ويعمل على تيسير تعليمها ، والسهر على تطويرها ، وتوسيع دائرة انتشارها)) .

وقد تتبنى جامعة الدول العربية هذا المشروع ليكون عربيا لما للجامعة من أثر في الساحة الدولية ، وما لاجهزتها من حضور في مختلف بلدان العالم ، أو تتبناه منظمة المؤتمر الاسلامي ليكون المشروع عربيا إسلاميا ، لما لها من سلطان في كثير من الدول الاسلامية .

فان عجزت هاتان المنظمتان ، أو لم تعدا ذلك من عملهما ـ على الرغم من أنهما أسستا لخدمة العرب والمسلمين ـ فقد تقوم بذلك دولة عربية لها من القدرات ما يؤهلها لانشاء ((منظمة دولية للغة العربية)) على غرار الفرنكفونية التي تقوم بها واحدة ـ هي فرنسة ـ التي أولت لغتها اهتماما عظيما ، وبشرت بها في العالم بالوسائل المختلفة ،

مثل فتح معاهد تدريسية ، ومراكز ثقافية ، وعقد مؤتمرات ، ومنح جوائز لمن يكتب بها من غير الفرنسيين . وقد حققت كثيرا مما سعت اليه في السنوات الأخيرة بفضل الجهود التي بذلت ، واسناد أمانتها العامة الى غير الفرنسيين مثل بطرس غالي المصري ، وعبدو ضيوف ـ السنغالي ـ لتضفي عليها عالمية ، وتكسب الأجانب من شتى بقاع العالم .

(٨)

وبعد :

هل تصبح العربية لغة عالمية ؟

العربية اليوم من حيث انتشارها اللغة الثالثة أي بعد الانكليزية والفرنسية ، وهي إحدى اللغات المعترف بها في هيئة الأمم ، وهي قادرة على التعبير عن حاجات الناطقين بها علميا وحضاريا لنموها في العصر الحديث ، وكثرة ما تولد من مصطلحات علمية ، وألفاظ حضارية ، وما ذلك إلا لتفاعلها مع معطيات الحياة الجديدة .

إن اللغة العربية في هذا العصر قادرة على تلبية مطالب المجتمع ومواكبة العلوم الحديثة ، وسواء أكانت عالمية أم لم تكن ، فهي هوية العرب ، كما أن اللغات الأخرى هوية أقوامها . ومسألة اللغة العالمية حلم راود بعضهم منذ القرن السابع عشر ، وظهرت عدة محاولات لاصطناع لغة عالمية ، ومن أشهر تلك المحاولات (الاسبرانتو) التي اعتمدت على أربع لغات أوربية هي : اللاتينية ، والانكليزية ، والفرنسية ، والالمانية . ولم تسد هذه اللغة التي اصطنعت لأغراض قد تكون غير لغوية ، لتمسك الدول بلغاتها

القومية ، على الرغم من الاتحادات كالاتحاد السوفيتي ، والاتحاد الأوربي ، وكانت جمهوريات الاتحاد السوفيتي قد عادتْ الى لغاتها القومية بعد انهيار الاتحاد ، وظلت دول الاتحاد الأوربي محتفظة بلغاتها التي تحدد هويتها القومية والوطنية .

إن قيام لغة تسود العالم كله حلم بعيد المنال ، ولن يتحقق إلا إذا أصبح العالم دولة واحدة ــ وهذا من المحال ــ لاختلاف الاجناس والأديان والمصالح ، ولن تدوم تلك اللغة ــ إن تحققت الدولة الواحدة ــ لأنها سرعان ما تنتهي بعد أن تنهار الدولة الموحدة ويعود كل قوم الى حدود أرضهم ولغتهم .

إن الدعوة الى لغة عالمية تقف وراءها الآن قوى معروفة ، وقد جعلت من العولمة سبيلا للوصول الى تحقيق هذا الهدف الى جانب الأهداف السياسية والاقتصادية ، واللغة العربية لغة العرب والمسلمين لا يعنيها أن تكون عالمية أو لا تكون ، ما دامت واسعة الانتشار ، وقادرة على التعبير عن المستجدات ، وتلقي العلوم المستحدثة بها ، على الرغم من الأصوات المنكرة التي يطلقها الخارجون على الأمة العربية ، والمنكرون تفوق المتلقين علومهم بها ، وهم يعلمون أن جميع الدول الحرة تدرس العلوم بلغتها ، وليس فيها من يدعو الى هجر لغته الأم واتخاذ لغة أجنبية ، كما في الوطن العربي الذي ابتلي بخوارجه قبل أن يبتلى بالاحتلال .